التَّقْدِيْمُ

لَعَلَّ ما شَدَّني إِلى هـذا البحْـثِ، وفَـرَضَ عَـليَّ سُـلْطانَهُ أَنَّ السُّـوَرَ القُرْآنِيَّـةَ يَخْتَلِـفُ بَعْضُهاعَنْ بَعْضٍ في الفَواتِحِ، أَوِ الآياتِ الاسْتِفْتاحِيَّةِ، أَوِ الجُمَـلِ النَّـواةِ، أوِ البُـؤْرِ النَّـواةِ، وعلَيْهِ فإِنَّ هذِهِ السُّوَرَ يُمْكِنُ تَوْزِيْعُها على حَسَبِ هذِهِ البُؤَرِ على ما يَأْتِيْ:

(١) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الثَّنائِيَّةِ.

(٢) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ المُصَدَّرَةِ بالحُرُوْفِ المُقَطَّعَةِ.

(٣) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ النِّدائِيَّةِ.

(٤) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الخَبَرِيَّةِ.

(٥) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ القَسَمِيَّةِ.

(٦) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الشَّرْطِيَّةِ.

(٧) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الأَمْرِيَّةِ.

(٨) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الاسْتِفْهامِيَّةِ.

(٩) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الدُّعائِيّةِ.

(١٠) السُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ التَّعْلِيْلِيَّةِ.

ويَتبَدَّى لي أَنَّ هذا التَّوْزِيْعَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكْمُنُ وراءَهُ سَبَبٌ يَتَحَكَّمُ فيهِ، وهُـوَ سَـبَبٌ يُوْمِئُ إِلى أَنَّ هُناكَ وَشِيْجاً تَنْدَرِجُ تَحْتَهُ سُوَرُ كُلِّ مَجْمُوْعَةٍ مِمّـا مَـرَّ، وهـذا الوَشِـيْجُ يَكْمُـنُ في الدَّلالَةِ العامَّةِ كما تَبَيَّنَ لي في أَثْناءِ حَدِيْثِيْ عَنِ هذِهِ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ ذَواتِ البُؤْرَةِ الاسْـتِفْهامِيَّةِ النَّواةِ، وهذِهِ الدَّلالَةُ فيها تُوْمِئُ إِلى تَهْدِيْدِ كُفَّارِ، مَكَّةَ، ومُنافِقِيْها، ومَنْ تَـبِعَهُمْ، ووَعِيْـدِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ عَذَّبُوا الرَّسُوْلَ مسْتَعِيْنِيْنَ بَأَنْواعِ التَّعْذِيْبِ الشَّتَّى، وأَنْكَرُوا أَنَّهُ رَسُوْلُ اللهِ، وتَحَقُّقِ يَوْمِ القِيامَة، وأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ سُبْحانَهُ زاعِمِيْنَ أَنَّهُ كَلامُ الرَّسُوْلِ عليْـهِ السّـلامُ، وقَـدْ آثَـرُوا

عِبادَةَ الأَصْنامِ الَّتي لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ على عِبادَةِ اللهَّ خالِقِهِمْ، وخالِقِ الكَوْنِ كُلِّهِ، ويُصاحِبُ هذا الوَعِيْدَ، والتَّهْدِيْدَ تَبْشِيْرُ الأَبْرارِ المُتَّقِيْنَ بالجَنَّةِ بما فيها مِنْ نِعَمٍ لا مَثِيْلَ لَها في الحَياةِ الدُّنْيا على أَنَّ مَصِيْرَ هُؤُلاءِ الكُفَّارِ المُعانِدِيْنَ جَهَنَّمُ، وبِئْسَ هذا المَصِيْرُ.

وحَمْلاً على ما مَرَّ فإِنَّ المَكانَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مَكَّةَ المُكَرَّمةَ، وهُوَ مَكانٌ يُومِئُ إِلى أَنَّ هذِهِ السُّوَرَ مَكِيَّةٌ، ويُعَزِّزُ هذا الإِيْماءَ الزَّمانُ، وهُوَ وَقْتُ تَكْلِيْفِ الرَّسُوْلِ بِدَعْوَةِ هؤُلاءِ إِلى الإِيْمانِ باللهّ واسْتِبْدالِهِمْ إِيَّاهُ بِعِبادَةِ الأَصْنامِ الَّتي لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ على أَنَّ مِمَّا فَرَضَ عَلَيْهِمْ سَيْطَرَتَهُ في هذِهِ المَسْأَلَةِ الحِفاظُ على رِثَةِ آبائِهِمْ، وأَجْدادِهِمْ، والعِنادُ.

ورَأَيْتُ أَنْ أَسْتَعِيْنَ، وأَوَظِّفَ ما في الدِّراساتِ الحَدِيْثَةِ مِنْ مَبادِئَ، ومفاهِيْمَ فَضْلاً عَمَّا في الدِّراساتِ القَدِيمَةِ مِمَّا لَهُ وَشِيْجٌ بهذا المَوْضُوْعِ في تَعْزِيْزِ أَنَّ هذِهِ السُّوَرَ ذَواتِ البُؤْرَةِ الاسْتِفْهامِيَّةِ النَّواةِ تَتَضامُّ مُشَكِّلَةً سُوْرَةً واحِدَةً، أَوْ نَصّاً قُرْآنِيّاً مُتَماسِكاً، ومُتَرابِطاً[1] ومِنْ هذِهِ الدِّراساتِ: عِلْمُ نَحْوِ النَّصِّ، أَوْ لُغَةِ النَّصِّ، وعِلْما السِّيْمْيائِيَّةِ، والتَّداوُلِيَّةِ (عِلْمُ اسْتِعْمالِ اللُّغَةِ)، ولَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ هُنالِكَ بُذُوْراً، أَوْ إِرْهاصاتٍ لهذِهِ العُلُوْمِ وَظَّفَها القُدامَى في تَعْزِيْزِ هذِهِ الوَشائِجِ بَيْنَ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ، وهُوَ تَوْظِيْفٌ انْتَهَوا مِنْهُ إِلى أَنَّ القُرآنَ سُوَرُهُ مُتَرابِطَةٌ، ومُتَماسِكَةٌ، وتُشَكِّلُ سُوْرَةً واحِدَةً، ومِنْ هؤُلاءِ القُدامَى الرَّازِيُّ، والبِقاعِيُّ، وغَيْرُهُما، ومِمَّنْ اسْتَعانَ مِنَ المُحْدَثِيْنَ في تَوْظِيْفِ نَظَرِيَّةِ نَحْوِ النَّصِّ، وغَيْرِها في تُفْسِيْرِ آياتِ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ ابْنُ عاشُوْرٍ في كِتابِهِ (تَفْسِيْر التَّحْرِيْر، والتَّنْوِيرِ).

ولَقَدِ اتَّكَأْتُ في تَعْزِيْز أَنَّ هذِهِ السُّوَرَ القُرْآنِيَّةَ ذَواتِ البُؤْرَةِ الاسْتِفْهامِيَّةِ النَّواةِ تُشَكِّلُ سُوْرَةً واحِدَةً، أَوْ نَصّاً قُرْآنِيّاً مُتَماسِكا مُتَلاحِما – على المَعْنَى العامِّ لكُلِّ سُوْرَةٍ مِنْ هذِهِ السُّوَرِ، وما يُمْكِنُ أَنْ يَنْدَرِجَ تَحْتَهُ دَلالِيّاً كسِيْمْيّائِيَّةِ العُنْوانِ، والجُمْلَتَيْنِ النَّواةِ، والخاتِمَةِ فَضْلاً عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ بُؤْرَةً في أَثْناءِ كُلِّ سُوْرَةٍ مِنْ هذِهِ السُّوَر.

واسْتَعَنْتُ في هذِهِ المَسْأَلَةِ بعِلْمِ لُغَةِ النَّصِّ، أَوْ نَحْوِهِ في تَعْزِيْزِ تَماسُكِ تَراكِيْبِ الآياتِ بمُكَوِّناتِها، وتَرابُطِها الَّذي يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ:

(١) الاتِّساقُ النَّحْوِيُّ في الجُمَلِ، والتَّراكِيْبِ بمُكَوِّناتِها، وهذا الاتِّساقُ يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلالِ عَناصِرِ الإِحالَةِ، والرَّبْطِ، والحَذْفِ على أَنَّ عَناصِرَ الإِحالَةِ تَشْتَمِلُ على

العَناصِرِ الإِشارِيَّةِ العامِلَةِ، وغَيْرِ العامِلَةِ، والضَّمائِرِ، والأَسْماءِ المَوْصُوْلَةِ، وأَسْماءِ الإِشارَةِ، والحَرْفِ (أَلْ)، وأَنَّ عَناصِرَ الرَّبْطِ تَشْتَمِلُ على حُرُوْفِ العَطْفِ، والجَزاءِ.

(٢) الاتِّساقُ في الفاصِلَةِ القُرْآنِيَّةِ: لا شَكَّ في أَنَّ لهذِهِ الفاصِلَةِ أَثَراً بَيِّناً في تَماسُكِ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ بَعْضِها ببَعْضٍ، ولهذِهِ الفاصِلَةِ أَنْواعٌ يَتَحَكَّمُ فيها طُوْلُ الآيَةِ، ومَوْقِعُ الفاصِلَةِ، ومِقْدارُها،ووَزْنُها، وحُرُوْفِ الرَّوِيِّ، أوِ السَّجْعِ.

(٣) الاتِّساقُ دَلالِيّاً: يَشْتَمِلُ على الجُمَلِ تَرابُطاً، وتَماسُكاً، والتَّقْدِيْمِ والتَّأخِيْرِ، والتَّوْكِيْد، والزَّمَنِ، والمَكانِ، والتَّعْلِيْلِ، والتَّضادِّ، وغَيْرِها كما سَيَأْتِيْ.

والقَوْلُ نَفْسُهُ في الاسْتِعانَةِ بمَبادِئِ التَّداوُلِيّةِ، ومَفاهِيْمِها بتَوْظِيْفِ المُناسِبِ مِنْها، وهذِهِ المَبادِئُ هيَ: الأَفْعالُ الكَلامِيَّةُ، والقَصْدِيَّةُ، والاسْتِلْزامُ الحَوارِيُّ، ومُتَضَمَّناتُ القَوْلِ، ونَظَرِيَّةُ المُلاءَمَة، وغَيْرُها، ولاشَكَّ في أَنّ مِحْوَرَ هذِهِ المَبادِئِ الرَّئِيْسَ المُتَكَلِّمُ، أَوِ الباثُّ، أَوِ المُرْسِلُ،والمُخاطَبُ، أَوِ المُرْسَلُ إِلَيهِ، أَوِ المُتَلَقِّي، أوِ المُسْتَمِعُ.

ولَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ في هذا البَحْثِ تَداخُلاً، وتَكْرِيْراً، وإِسْرافاً في إِعْرابِ بَعْضِ التَّراكِيْبِ اللُّغَوِيَّةِ، ومُحْتَوَياتِ الكِتابِ، وغَيْرِ ذلِكَ مِمّا أَفْضى إِلى التَّطْوِيْلِ، والتَّوْسِعةِ، وهِيَ مَسْأَلَةٌ قَدْ تَعُوْدُ إِلى أَنَّنيْ كُنْتُ أَنْقَطِعُ عنِ الكِتابَةِ في هذا المَوْضُوْعِ بَيْنَ الفَيْنَةِ، والأُخْرَى، وإِلى الرَّغْبَةِ في التَّوْضِيْحِ، والتَّبْيِيْنِ، وهَجْرِ الإِلْباسِ، والغمُوْضِ.

ورَأَيْتُ تَوْزِيْعَ كُلِّ سُوْرَةٍ مِنْ هذِهِ السُّوَرِ على فِقَراتٍ على وَفْقِ المَعانِيْ الجُزْئِيَّةِ الَّتي تَنْدَرِجُ تَحْتَ المَعْنَى العامِ ليَسْهُلَ التَّناوُلُ.

ورَأَيْتُ أَيْضاً أَنْ يَكُوْنَ هذا البَحْثُ في ثَلاثَةِ فُصُوْلٍ على أَنَّ كُلَّ فَصْلٍ قَدْ يُوْسَمُ بالطُّوْلِ لكَثْرَةِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَمِلَ علَيْهِ مِنْ مسائِلَ مَنْثُوْرَةٍ هُنا، وهُناكَ، وهذِهِ الفُصُوْلُ هيَ:

الفَصْلُ الأَوَّلُ: الوِحْدَة المَوْضُوْعيَّةُ في السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ ذَواتِ البُؤرَةِ الاسْتفْهامِيَّةِ النَّواةِ.

الفَصْلُ الثَّانِيْ: عَناصِرُ التَّماسُكِ النَّصِّيِّ في السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ ذَواتِ البُؤرَةِ الاسْتفْهامِيَّةِ النَّواةِ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ: التَّداوُلِيَّةُ والسُّوَرُ القُرْآنِيَّةُ ذَواتُ البُؤْرَةِ الاسْتِفْهامِيَّةِ النَّواةِ، وهُوَ فَصْلٌ آثَرَتُ فيْهِ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ إِخْضاعِ مَفاهِيْمِ التَّداوُلِيَّةِ لسُوْرَةٍ تُوْسَمُ بالقِصَرِ مِنْ هذِهِ السُّوَرِ رَغْبَةً في الإِيْجازِ، والاخْتِصارِ، وهِيَ سُوْرَةُ الشَّرْحِ على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِيْ وَظَّفْتُ المُناسِبَ مِنْ هذِهِ المَفاهِيْمِ في كُلِّ ما لَهُ وَشِيْجٌ مِنْ مَسائِلِ البَحْثِ بِها.

وبَعْدُ فاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُوَفِّقَنا عالِمِيْنَ، ومُتَعَلِّمِيْنَ لِخِدْمَةِ كِتابِهِ العَزِيْزِ، ولُغَتِهِ الشَّرِيْفَةِ الّتي تَتَضامُّ عَوامِلُ مُتَعَدِّدَةٌ لتُسْهِمَ في تَراجُعِها، والتَّنْفِيْرِ مِنْها، واسْتِبْدالِ اللُّغَة الإِنْجلِيْزِيَّةِ بِها في عَصْرِنا.